العتبة الحسينية المقدسة

الإمام الحسن عليه السلام والصلح

(تصدير كتاب صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين)

تأليف

السيّد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي

تقديم

مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية

رقم الإصدار: ٤



العراق - النجف الأشرف
www.imamhassan.org
info@imamhassan.org
+964 7803358020

❖ هوية الكتاب:

اسم الكتاب.................. الإمام الحسن عليه السلام والصلح

المؤلِّف .. السيّد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي

الطبعة.. الأُولىٰ

سنة الطبع ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م

الكمّية .... ١٠٠٠ نسخة

الناشر ... مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية

الإخراج الفنّي ....وحدة الإخراج الفنّي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المركز:

الحمـــد لله ربّ العـــالمين، والصـــلاة والســـلام عـــلىٰ أشرف الخلـق أجمعـين محمّـد وآلـه الطيّبـين الطـاهرين، واللعـن الـدائم عـلىٰ أعدائهم أجمعين إلىٰ قيام يوم الدين، آمين ربّ العالمين.

أهل البيت عليهم السلام شـخوص نورانيـة وأشـخاص ملكوتيـة، منهـا ولأجلها وُجِدَ الكون، وإليها حساب الخَلق، يتـدفَّقون نـوراً وينطقـون حياةً، شفاههم رحمة وقلوبهم رأفة، وُضِع الخير بميزانهم فزانـوه عـدلاً، ونَمَت المعرفة علىٰ ربوع ألسنتهم فغذّوها حكمةً.

أنـوارٌ هـداة، قـادةٌ سـادات، (ينحـدرُ عـنهم السيل، ولا يرقـىٰ إليهم الطير)، ألفـوا الخَلـق فـألفوهم، تصـطفُّ عـلىٰ أبـوابهم أبنـاء آدم متعلِّمين مستنجدين سائلين، وبمغانمهم عائدين.

لا يُكرِهون أحداً علىٰ موالاتهم ولا يُجبِرون فـرداً عـلىٰ اتِّبـاعهم، يُقيّد حبّهم كلّ من استمع إليهم، ويشغف قلب كلّ من رآهم، منهجهم الحقّ وطريقهم الصدق وكلمتهم العليا، هم فوق ما نقول ودون ما يقال من التأليه، هم أنوار السماء وأوتاد الأرض.

والإمـام الحســن المجتبــىٰ عليه السلام هـو أحـد هـذه الأسرار التـي حــار الكثـير في معناهــا، وغفــل الــبعض عــن وجــه الحكمــة في

قراراتهــا، وبــاع آخـرون ديـنهم بـدنيا غـيرهم، فراحـوا يُسـطرون الكـذب والافـتراءات عليـه، والتـي جـاوز بعضـها حـدّ العقـل، ولم يتجاوز حدّ الحقد المنصبّ علىٰ بيت الرسالة.

وقد اهتمَّ مركز الإمام الحسن عليه السلام للدراسات التخصّصية بكتابة البحوث والدراسات وتحقيـق المخطوطـات التـي تعنـىٰ بشـأن الإمـام الحسن المجتبىٰ عليه السلام ونشرها في كتب وكتيّبات بالإضـافة إلىٰ نشــرها علىٰ مواقع الانترنيت وصفحات التواصل الاجتماعي التابعة للمركز.

بالإضــافة إلىٰ النشــاطات الثقافيــة والإعلاميــة الأُخــرىٰ التــي يقـوم بهـا المركـز مـن خـلال نشـر التصـاميم الفنّيـة، وإقامـة مجـالس العــزاء، وعقــد المحــاضرات والنــدوات والمســابقات العلميــة والثقافية التـي تثـرىٰ بفكـر أهـل البيـت عليهم السلام وغيرهـا مـن توفيقـات الله تعالىٰ لنا لخدمة الإمام المظلوم أبي محمّد الحسن المجتبىٰ عليه السلام.

وهــذا الكتـاب الـذي بـين يـديك عزيـزي القـارئ هـو أحـد تلـك الـثمار التـي أينعـت، والتـي لا تهـدف إلّا إلىٰ بيـان شخصـية الإمــام الحســن المجتبــىٰ عليه السلام بكــلِّ أبعادهــا المضـيئة ونواحيهــا المشــرقة، ولرفــد المكتبــة الإســلاميَّة ببحــوث ودراســات عــن شخصية الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام.

ومن الله التوفيق والسداد.

العتبة الحسينية المقدَّسة

مركز الإمام الحسن للدراسات التخصّصية

كاظم الخرسان

ترجمة حياة
السيّد عبد الحسين شرف الدين الموسوي

لستُ ببالغٍ _ من تعريفك أيّها القارئ الكريم بالسيّد المؤلِّف _ مبلغ تعريف هذا الكتاب (كتاب المراجعات) به، وحسْبُك منه وأنت تقرؤه في هذا الكتاب أنْ تعرفَ به بطلاً من أبطال العلم، وفارساً من فرسان البيان، تأتيه حين تأتيه مالكاً لأمرك، مسيطراً علىٰ نفسك، فإذا استقرَّ بك المقام عنده، لم تتمالكْ دون أنْ تضع قيادَك بين يديه، فإذا هو يتملَّك زِمام أمرك، ويَدخل إلىٰ قرارة نفسك، فيسيطرَ عليك بطبيعة قوَّته وأدبه وعلمه.

وأنت لا تخشىٰ مغبَّة العاقبة من هذه السيطرة؛ فإنَّها سيطرةٌ مضمونةُ الخير، مأمونةُ الشرِّ، بعيدةٌ عن الكيد والمكروه، بعد الصحَّة عن الفساد، وكنْ واثقاً أكبرَ الثقة _ حين يأخذُك بيانه وبرهانه _ إنَّه إنَّما يرِد بك مناهلَ مترعةَ الضِّفاف، بنميرٍ ذي سلسبيل، كلَّما كرعتَ من فراته جرعةً، تحلَّبتْ شفتاك لجرُعاتٍ تحسَب أنْ ليس لظمئك راوياً غيرها.

هذا بعض ما يُعرِّفك به الكتابُ عن مؤلِّفه، أفترُاني أبلُغ

من تعريفك به أبعد ممَّا يُعرِّفك هو بنفسه؟ كلَّا فإنَّ للسيّد عبد الحسين في الحياة مناحيَ وميادين لا أراني موفِياً عليها، وأنا في هذا السبيل الضيِّق القصير، ويوشك أنْ يكون الأمر يسيراً لو أنَّ المترجَم له غير هذا الرجل، ويهون الأمر لو كان من هؤلاء الرجال المحدودة حياتُهم وأعمالهم، أمَّا رجلٌ كهذا الرجل الرحْب العريض، فمِن الصعب جدَّاً أنْ يتحمَّل كاتبٌ عبءَ الحديث عنه، والتوفُّر عليه؛ لأنَّه يشعر حين يقف إليه أنَّه يقف إلىٰ جبلٍ ينبض بألوانٍ من الحياة، متدفِّقةٍ من كلِّ نواحيه وجوانبه، فلا يكاد يردُّ كلَّ لونٍ إلىٰ مصدره إلَّا ببحثٍ عليه مسؤوليات من المنطق والعلم، قد ينوء بها عاتق المؤرِّخ الأمين.

ويكفيك من تعريفه _ علىٰ سبيل الإجمال _ ما يُعرِّفك به الكتاب من فنِّه وعلمه، وكنّا نودُّ لو يُتاح لنا أنْ نقفَ وقفةً خاصَّةً لهذه الناحية الفنّية المتعبة، ولاسيّما ونحن منه في سبيل العلم والفنّ اللذين اجتمعا للمؤلِّف فصاغا هذا الكتاب متساندَين صياغةَ قدرةٍ وابتداع، قلَّ أنْ نجدَ لها نِدَّاً في مقدور زملائه من الأعلام (أمدَّ الله في حياة أحيائهم).

ولكنَّ إحكام الكتاب علىٰ هذا النحو من قوَّة العارضة في الأدب، وبُعد النظر في البحث، وسلامة الذوق في الفنِّ وحُسْن التيسير في إيضاح المشاكل، وتحليل المسائل، أَطلق له لساناً من البيان الساحر أغنانا عن الأخذ بالأعناق إلىٰ مواضع جماله، فكلُّ

بحث فيه لسانٌ مبينٌ عن سرِّه، يناديك حين تغفل عنه، ويدعوك بصوته حين تمرّ به سَهوان، ولا تقدر لنفسك أنْ تتملّاه أو تُعجَب به.

وكتابٌ فيه هذه الحياة لا ينفكُّ عن صاحبه بحال، ولا تحسب أنَّ للكتب حياةً خاصَّةً مستقلَّةً، فليست حياةُ الكتب غير حياة المؤلِّفين والكُتّاب نفسها، فإذا سمعت نبأة، وأدركتَ حسَّاً في كتابٍ، فإنَّما تسمع جِرْس الكاتب، وتحسُّ حسَّه عينه.

وبعد، فسأتركك عند هذا القدر من المعرفة بهذا الإمام، ولك أنْ تكتفي به، ولك أنْ لا تكتفي منه، فبحسْبي أنْ أُشعِرك بطرف ممَّا عرفتُ منه، وأنا أنغمس في هذه المراجعات. وبحسْبك منّي أنْ ترىٰ منزلته من نفسي: كعالمٍ يضمُّ إلىٰ علمه فنَّاً من الأدب منقطع النظير، ولك أنْ تثق بي حين تعتبرني دليلاً، أميناً سليم الاختيار بترجمة هذه الذخيرة، وضمّها إلىٰ مؤثلات لغتنا الحيَّة.

مولده ونشأته:

علىٰ أنّي لا أرىٰ لك أنْ تقتصر من معرفته علىٰ هذا المقدار، كما لا أرىٰ لك أنْ تجتزئ بطائرِ اسمِه، وسعة شهرته في العالم الإسلامي، وإنَّما أرىٰ أنْ تتجاوز ذلك إلىٰ الإحاطة بشيءٍ من حياته؛ وبشيء من ظروفه التي قَدَّرتْ له هذه الحياة.

وُلِدَ السيّد عبد الحسين شرف الدين _ أورفَ اللهُ ظلَّه _ في

الكاظمية سنة (١٢٩٠هـ)، من أبوَين كريمين تربط بينهما أواصر القربىٰ، ويوحِّد نسبَهما كرمُ العِرق، فأبوه الشريف يوسف بن الشريف جواد بن الشريف إسماعيل، وأُمُّه البرَّة (الزهراء) بنت السيّد هادي بن السيّد محمّد علي، منتهيَين بنسبٍ قصيرٍ إلىٰ شرف الدين أحدِ أعلام هذه الأُسرة الكريمة.

ثمّ درج في بيتٍ مهَّد له أسباب الزعامة العلمية؛ ورُفِعَتْ دعائمه علىٰ أعلامٍ لهم في دنيا الإسلام، ذِكْرٌ محمود، وفضلٌ مشهود، وخدماتٌ مشكورة، فكانت طبيعة الإرث الأثيل، تُحفِّزه للنهوض من جهة أُخرىٰ، وتربيته الصالحة _ كانت قبل ذلك _ تصوغه علىٰ خيرِ مثالٍ يُصاغ عليه الناشئ الموهوب، فهو أنّىٰ التفتَ من نواحي منشئه الكريم، استقىٰ النشاط والتوفّر علىٰ ما بين يديه من حياة: مؤمِّلةً لخيره ولخير من وراءه من الناس.

ثمّ شَبَل في هذا البيت الرفيع؛ يرتعُ في رياض العلم والأخلاق، ويتوقَّل في معارج الكرامة، فلمَّا بلغَ مبلغَ الشباب الغضِّ اصطَلحتْ عليه عوامل الخير، وجعلتْ منه صورةً للفضيلة، ثمّ كان لهذه الصورة التي انتزعها من بيته وبيئته وتربيته أثرٌ واضح في نشأته العلمية، ثمّ في مكانته الدينية بعدئذٍ. فلم يكدْ يخطو الخطوةَ الأُولىٰ في حياته العلمية حتَّىٰ دلَّتْ عليه كِفايته، فعكف عليه طلَّابُه وتلامذته، وكان له _ في منتديات العلم في سامراء والنجف الأشرف _ صوتٌ يُدوّي، وشخص يوماً إليه بالبَنان.

ومنـذ ذلـك اليـوم بـدأ يلتمـع نجمُـه في الأوسـاط العلميـة، ويتَّسع إشراقـه كلَّـما توسّـع هـو في دراسـته، وتقـدّم في مراحلـه حتَّـىٰ ارتاضت لـه الحيـاة العلميـة، عـلىٰ يـد الفحـول مـن أقطـاب العلـم في النجـف الأشرف وسـامراء، كالطباطبـائي، والخراسـاني، وفـتح الله الأصفهاني، والشـيخ محمّـد طـه نجـف، والشـيخ حسـن الكربلائـي، وغيرهم من أعلام الدين وأئمَّة العلم.

ولـمَّا استوفىٰ حظّـه العلمـي مـن الثقافـة الإسـلاميَّة العاليـة، كان هـو قـد صـاغ لنفسـه ذوقـاً عاليـاً، سـاعدتْه عـلىٰ إنشـائه ملكاتـه القويَّة، وسليقته المطبوعـة عـلىٰ حُسـن الأداء، وتخيُّر الألفـاظ، وقـوَّة البيـان، وذَرابـة اللسـان، وسـعة الـذهن، فكـان بتوفيقـه بـين العلـم والفنّ ممتازاً في المدرسة، مضـافاً إلىٰ مـا كـان لـه مـن الميـزة الفطريـة في ناحيتي الفكر والعقل.

عـلىٰ أنَّـه لم يكتـفِ مـن مدرسـته بتلقّـي الـدروس واكتنـاز المعارف فقـط، بـل اسـتفاد مـن ملابسـات الحيـاة العامَّـة التـي كانـت تـزدحم عـلىٰ أبـواب المراجـع مـن أسـاتذته، وانتفـع مـن الأحـداث المؤتلفـة، والحـوادث المختلفـة التـي كانـت تُولِّـدها ظـروف تلـك الحيـاة، فكـان يضـع _ لمـا اختلـف منهـا ولمـا ائتلـف _ حسـاباً، ويسـتخرج منـه نفعـاً ويُقـدِّر لـه قيمـة، وينظـر إليـه نظـرةَ اعتبـار، ليجمع بين العلم والعمل، وبين النظريات والتطبيق.

إذن فقـد كانـت مدرسـته _ بالقيـاس إليـه _ مدرسـتين: يعـاني في إحـداهما المسـائل العلميـة، ويعـاني في الثانيـة المسائل الاجتماعيـة،

ثـمّ تتـزاوج في نفسـه آثـار هـذه وآثـار تلـك مصـطلحة عـلىٰ إنتـاج بطولته.

في عاملة:

وحـين اسـتعلن نضـجه، ولمـع فضـلُه في دورات البحـث ومجالس المذاكرة والتحصيل؛ عـاد في الثانيـة والثلاثـين مـن عمـره _ إلىٰ جبـل عامـل _ جنـوب لبنـان، موقـوراً مشـهوراً مملـوء الحقائـب، ريّـان الـنفس، وَريـق العـود، نـديَّ اللسـان، مشـبوب الفكـر، وكـان يـومُ وصـوله يومـاً مشـهوداً، قـذفت فيـه عاملـة بأبنائهـا لتسـتهلَّ مقدمـه مشـرقاً في ذراهـا وأجوائهـا، واسـتقبلتْه مواكـب العلـماء والـزعماء والعامَّـة، إلىٰ حـدود الجبـل مـن طريـق الشـام في مبـاهجَ كمباهج العيد.

ولم تكـن عاملـةُ _ وهـي منبـت أُسرتـه _ مغاليـةً أو مبالغـةً بمظـاهر الحفـاوة بـه، أو بتعليـق أكـبر الآمـال عليـه، فإنَّهـا علمـتْ _ ولـمَّا يمض عليه فيها غـير زمـن يسـير _ أنَّـه زعيمهـا الـذي ترجـوه لدينها ودنياها معـاً، فتنـيط بـه الأمـل عـن (عـين) بعـد أن أناطتْـه بـه عـن (أُذُن)، وتتعلَّـق بـه عـن خـبرة، بعـدما تعلَّقـت بـه عـن سـماع، وتَعرف به الرجـل الـذي يضـيف عيانـه إلىٰ أخبـاره، أُمـوراً لم تـدخل في الظنِّ عند الخبر.

إصلاحه:

وابتـدأت في عاملـة حيـاةٌ جديـدة، شـأنها الشـدَّة في الـدين،

والليـن في الأخـلاق، والقـوَّة في الحـقِّ، والهـوادة مـع الضـعفاء، والأمـر بـالمعروف، والنهـي عـن المنكـر، والتطـامن لأهـل الـدين، والتواضـع للعلـماء، وكانـت يومئـذٍ اقطاعيـاتٌ منكـرة، لا تملـك العامَّةُ معها من أمر نفسها شيئاً، ولا تفهـم مـن الحيـاة في ظلِّهـا غـير معناهـا المـرادف للـرقِّ والعبودية، أو لا يفسـح لهـا أنْ تفهـم غـير ذلـك مـن حياتهـا الهيِّنـة المسـخَّرة للأقويـاء مـن جبـابرة النـاس وطـواغيتهم، فلـمَّا اسـتقرَّ بـه المقـام في عاملـة، لم يسـتطعْ إقـرارَ هـذا النظام الجـائر المسـتبدِّ بحقـوق الجماعـة، ولم يجـدْ مـن نفسـه، ولا مـن إيمانـه، ولا مـن بـرِّه، مسـاغاً للصـبر عـلىٰ الإقطاعيـة هـذه، وإنْ ظاهرَهـا الأقويـاء، والمتزعِّمـون، والمسـتعمرون، وكـلُّ مـن يتحلَّـب ضرعهـا المـادّي الحلـوب، لـذلك ثـار بهـا وبهـم، وأنكـر عليهـا وعليهم، واستغلظ الشـرُّ بينه وبينهم، فجمعـوا لـه وأجلبـوا عليـه، وسعَوا فيه، وكان كلُّ سعيهم بُوراً.

أثر بلاغته:

وكـان لمنـابره البليغـة، ولأسـاليب إرشـاداته البارعـة، أكـبر الأثـر في تحقيـق إصـلاحه المنشـود، ولا غـرْوَ فـإنَّ للسـيّد المؤلِّـف مقاماً خطابياً يغبطه عليه خطباء العرب، ويعتزُّ به الـدين والعلـم والأدب.

وخطابته ككتابته تستمدُّ معانيها وقوَّتها وغزارتها من ثقافته كلِّها، وترتضع في الموضوع الخاصّ أثداء شتّىٰ من معلوماته

الواسعة، فإذا قرأتَه أو سمعتَه رأيتَ مصادر ثقافته كلّها منهلةً متفتِّحةَ الأفواه كشرايين الثدي وعروقه، ترفده من كلِّ موضع وعاه في حياته ما ينسجم وموضوعه الذي هو بسبيله، وعلىٰ ذوقه الممتاز أنْ يضعَ أطراف ما يتدفَّق إليه في هيكل الموضوع الذي بين يديه، ويركزه في مكانه، حتَّىٰ إذا انتهىٰ أنهىٰ _ إذن _ بحثاً نافعاً، كلُّه غذاءٌ ومتاع.

وأعظِمْ به _ إلىٰ جانب هذه البلاغة _ متخيِّراً لآلىء معانيه، وأزياء أفكاره يُقدِّرها تقديراً، ويرصفها رصفاً، ويبعث فيها حياةً تنبضها بما يريد لها من دلالة في مفهومٍ أو من منطوقٍ بأوصافه، وإضافاته، وبكلِّ تآليفه المنسوقة المنسجمة.

ثمّ أعظِمْ به محدِّثاً إذا تشاجَنَ الحديث وتشقَّق وانساب علىٰ سفينة تمخر العُباب، فهناك النكتة البارعة، والطُّرفة اللامعة، والنادرة الحلوة، والخبر النافع.

من هذا وذاك علِقتْ به النفوس؛ واجتمع عليه الرأي، فقاد للخير وابتغىٰ المصلحة. وتكاملتْ له زعامةٌ عامَّة، يحلُّ منها في شغاف الأفئدة والقلوب، ولم تكنْ هذه الزعامة مرتجلةً مفاجئة، بل كانت عروقها واشجةَ الأُصول، عميقة الجذور، تتَّصل بالأعلام من آبائه، والغُرِّ من أعمامه وأخواله، ثمّ صرفت هذا الميراث الضخم يده البانية، فأعلتْ أركانه، ومدَّتْ شطآنه وخلجانه.

بيته:

فبيتـه في ذرىٰ عاملـة، مطنـب مضـروب، للقِـرىٰ والضِّـيفان، تزدحم فيه الوفود، وتهـدىٰ إليـه الحشـود إثـرَ الحشـود، ويصـدر عنـه الكـروب بالرفـد المحمـود، وهـو قـائمٌ في تيّـار المـوجتين المتعاكسـتين بـالوِرد والصـدر، هشاشـاً طلْـق المحيّـا، لا يشـغله تشـييع الصـادر، عـن اسـتقبال الـوارد، ولا يلهيـه حـقّ القـائم عـن حقـوق القاعـد، ولكنَّه يجمع الحقوق جميعاً ويُوفِّق بينها، فيُوزِّعها عادلةً متناسبةً.

ولأريحيَّتـه الكريمـة جوانـب أنفـع مـن هـذا الجانـب، وأبعـد أثراً، فهو مفزعٌ يـأوي إليـه المحتـاجون والمكروبـون، وملجـأٌ يلـوذون بـه في الملـمّات، يسـتدفعون بـه المكـاره، حـين تضـيق بهـا صـدور الناس، وتشتدُّ بهم آلامهـا، فـإذا طفْـتَ بيتـه، رأيـتَ ألـوان الغايـات، تدفع بـألوانٍ مـن المحتـاجين إليـه، المعـوِّلين عليـه في مختلـف أحـوالهم وأوضـاعهم الخاصَّـة والعامَّـة، ممَّـا يتَّصـل بـدينِهم أو دنيـاهم، وتـراه قائماً بين هـؤلاء وهـؤلاء، يجـودهم بنفحاتـه العلَويـة، ويُغـدِق علـيهم مـن أريحيَّتـه الهاشـمية؛ ويبـذل لهـم مـن روحـه وراحتـه مـا يمـلأ بـه نفوسـهم مرَحـاً وسروراً، ثـمّ لا يسـألهم عـلىٰ ذلـك جـزاءً ولا شكوراً.

وهـا هـو لا يـزال، مـدَّ اللهُ في حياتـه، يمـلي عـلىٰ تاريخـه مـن أحداثـه الجِسـام، ومآتيـه الغُـرّ في خدمـة الله والمـؤمنين والوطنيـة الصحيحة، ما تضيق عنه هذه العُجالة.

خدماته:

أمَّـا خدماتـه المناضـلة ضـدّ الاسـتعمار الأجنبـي فحـدِّثْ عنهـا ولا حـرج، ولا يتَّسـع مجالنـا هـذا لتفصـيل القـول في ذلـك النضـال، ولكـنْ بوسـعي أنْ أقـول لـك بكلمـة مجمَلـة: إنَّ خدماتـه العظيمـة في العهـد التركـي، ثـمّ في العهـد الفرنسـي، ثـمّ في أيّـام الاسـتقلال، كانـت امتـداداً لحركـات التحريـر، وارتقـاءً بهـا نحـو كـلّ مـا يُحقِّـق العـدل ويُوطِّـد الأمـن، ويُـنعش الكافّـة، عـلىٰ أنَّ السـلطات في العهود كلِّهـا لم تـألُ جهـداً في مقاومتـه، ومنـاوأة مشـاريعه بـما تقـاوم به السلطاتُ الجـائرةُ مـن الـدسِّ والاضـطهاد وقتْـل المصـالح، ولعـلَّ المحـنَ التـي كابـدها هـذا الإمـام الجليـل في سـبيل إسـعاد قومـه، لم يكابدْ نارَهـا إلَّا أفـذاذٌ مـن زعـماء العـرب وقـادتهم، ممَّـن أبلَـوا بـلاءً، وعانَوا عناءً.

وناهيـك بـما فاجأتْـه بـه سـلطةُ الاحـتلال الفرنسـيّ حـين ضـاقتْ بـه ذرْعـاً، إذ أوعـزتْ إلىٰ بعـض جُفاتهـا الغـلاظ باغتيالـه. واقـتحم ابـن الحـلَّاج عليـه الـدار في غِـرة، وهـو بـين أهلـه وعيالـه، دون أنْ يكـون لديـه أحـدٌ مـن أعوانـه ورجالـه، ولكـنَّ الله سـبحانه وتعالىٰ أراد له غـير مـا أرادوا، فكـفَّ أيـديَهم عنـه، ثـمّ تراجعـوا عنـه صاغرين يتعثَّرون بأذيـال الفشـل والهـوان، ومـا يكـاد يَـذيع نبـأُ هـذه المباغتة الغادرة في عاملـة، حتَّـىٰ خفَّـتْ جمـاهيرُهم إلىٰ صـور، تزحـف إليها من كلِّ صوب وحدب، لتأتمرَ مـع سـيّدها فـيما يجـب اتِّخـاذُه مـن

التدابير إزاء هـذا الحـدَث، غـير أنَّ السـيّد صرفهـم بعـد أنْ شـكرهم، وأجزلَ شُكرهم، وارتأىٰ لهم أنْ يمرّوا بالحادث كراماً.

ثـمّ تـلا هـذا الحـادثُ أحـداثاً وأحـداثاً اتَّسـع فيهـا الخـرْق، وانفجـرت فيهـا شُـقَّة الخـلاف، حتَّـىٰ أدَّتْ إلىٰ تشـريد السـيّد بأهلـه ومـن إليـه مـن زعـماء عاملـة إلىٰ دمشـق، وقـد وصـل إليهـا بـرغم الجيش الفرنسـي الذي كـان يرصـدُ عليـه الطريـق، إذ كانـت السـلطة الغاشمة تتعقَّبه بقوَّةٍ من قوّاتهـا المسـلَّحة لتحـوْل بينـه وبـين الوصـول إلىٰ دمشق، وحـين يئسـتْ مـن القـبض عليـه، عـادت فسـلَّطتِ النـار عـلىٰ داره في (شـحور) فتركتْهـا هشـيماً تـذوره الريـاح، ثـمّ احتلـتْ داره الكـبرىٰ الواقعـة في (صـور) بعـد أنْ أباحتْهـا للأيـدي الأثيمـة، تعيث بها سـلباً ونهبـاً، حتَّـىٰ لم تـتركْ فيهـا غاليـاً ولا رخيصـاً، وكـان أوجـعَ مـا في هـذه النكبـة تحـريقُهم مكتبـة السـيّد بكـلِّ مـا فيهـا مـن نفـائس الكتـب وأعلاقهـا، ومنهـا تسـعة عشــر مؤلَّفـاً مـن مؤلَّفاتـه، كانت لا تزال خطِّيَّةً إلىٰ ذلك التاريخ.

في دمشق:

وظلَّ في دمشق تجيش نفسه بالعظائم وتحيط به المكرمات، في أبَّهة من نفسه، ومن جهاده، ومن إيمانه، وكـان في دمشـق يومئـذٍ مـداولات ملكية، واجتماعات سياسية، وحفلات وطنية، تتبعها اتِّصالات بطبقات مختلفة من الحكومة والشعب، كان السيِّد في جميعهـا زعـيماً مـن زعـماء الفكر، وقائداً من قادة الرأي، ومعقِداً من معاقد الأمل في النجاح.

ولـه في هـذه الميـادين مواقـفُ مـذكورة، وخطابـاتٌ محفوظـة، سجَّلها له التاريخ بكثيرٍ من الفخر والإعجاب.

ولم يكـنْ بـدٌّ مـن اصـطدام العـرب بجـيش الاحـتلال، فقـد كانـتِ الأسـباب كلُّهـا مهيَّـأة لهـذا الاصـطدام؛ حتَّـىٰ إذا التقـىٰ الجمعـان في (ميسـلون) واشـتبكا في حـربٍ لم يطـل أمَـدها، ودارت الدائرة علىٰ العرب لأسبابٍ نُعرض عنها.

غـادر السـيّد دمشـق إلىٰ فلسـطين، ومنهـا إلىٰ مصـر بنفـرٍ مـن أهلـه، بعـد أنْ وزع أُسرتـه في فلسـطين بـين الشـام وبـين أنحـاءٍ مـن جبل عامل، في مأساةٍ تضـيف أدلَّـةً إلىٰ الأدلَّـة عـلىٰ لـؤم أعدائـه، فقـد ظلَّ ثقلٌ مـن أهلـه الـذين ذهبـوا إلىٰ (عاملـة) ليـالي وأيّامـاً لا يجـدون بُلغـةً مـن العـيش يحشـون بهـا مِعَـدَ صـغارهم الفارغـة، عـلىٰ أنَّهـم يبذلون مـن المـال أضـعاف القيمـة، ويبسـطون أكفّهـم بسـخاءٍ نـادر، وأخـيراً لم يجـدوا حـلَّاً بغـير توزيـع قـافلتهم في الأطـراف المتباعـدة، بـين مـن بقـي مـن أوليـائهم وأصـدقائهم عـلىٰ شيءٍ مـن الوفـاء أو الشجاعة.

في مصر:

حـين وصـل مصـر احتفلـت بـه، وعرفتْـه بـالرغم مـن تنكّـره وراء كوفيـة وعقـال، في طـرازٍ مـن الهنـدام عـلىٰ نسـق المـألوف مـن الملابـس الصـحراوية اليـوم، وكانـت لـه مواقـف في مصـر وَجهـت إليـه نظـرَ الخاصَّـة مـن شـيوخ العلـم، وأقطـاب الأدب، ورجـال السياسة، علىٰ نحوِ ما تقتضيه شخصيته الكريمة.

ولم يكـنْ هـذا أوَّل عهـده بمصـر، فقـد عرفتْـه مصـر قبـل ذلـك بـثمان سـنين، حـين زارهـا في أواخـر سـنة تسـع وعشـرين، ودخلتْ عليه فيها سنة ثلاثين وثلاثمائة وألـف هجرية، في رحلـةٍ علميـةٍ جمعتْـه بأهـل البحـث، وجمعـتْ بـه قـادة الـرأي مـن علـماء مصـر، وعُقدت فيها بينه وبين شيخ الأزهر يومئذٍ _ الشيخ سليم البشـري _ اجتماعاتٌ متوالية تجاذبا فيها أطراف الحديث وتداولا جوانب النظر في أُمَّهات المسائل الكلامية والأُصولية، ثمّ كان من نتاج تلك الاجتماعات الكريمة هذه (المراجعات) التي نحن بصددها.

في فلسطين:

وحدثتْ ظروفٌ دعتْه إلىٰ أنْ يكون قريباً من عاملة، فغادر مصر في أواخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألفٍ هجرية إلىٰ قريةٍ من فلسطين تُسمّىٰ (علما) تقع علىٰ حدود جبل عامل، وفي هذه القرية هوىٰ إليه أهله وعشيرته، ولحق به أولياؤه المشـرَّدون في هذا الجهاد الديني الوطني، فكانوا حوله في القُرىٰ المجاورة. وكان في (علما) كما يكون في جبل عامل من غير فرقٍ، كأنَّه غير مبعد عن داره وبلده، يتوافد إليه الناس من قريبٍ ومن بعيدٍ، ولا يكاد يخلو منزله من أفواج الناس، فيهم الضيوف، وفيهم طلَّاب الحاجات، وفيهم روّاد القضاء والفقه، وفيهم من تستدعيه الحياة السياسية أنْ يعرف ما عند السيِّد من وجه الرأي.

وانسلخت شهورٌ في (علما) تصـرَّفتْ فيها الأُمور تصـرّفاً يـرُضي السيّد بعض الرضا، وأُبيح للسيّد أنْ يعود إلىٰ عاملة بعد مفاوضات أدَّتْ إلىٰ العفو عن المجاهدين عفواً عامَّاً، وإلىٰ وعدٍ من السلطة بإنصاف جبل عامل، وإنهاضه، وإعطائه حقوقه كاملة.

العودة:

وحين اطمأنَّتْ نفسه بما وعدتْه به السلطة، عاد إلىٰ جبل عامل، ولم تسمح نفسه بأنْ يعود والمجاهدون مبعَدون، لذلك جعل بيروت طريق عودته _ وطريقُه بعيدة عنها _ ليستنجز العفو العامّ عن المجاهدين، وكذلك كان؛ فإنَّه لم يخرجْ من بيروت حتَّىٰ كان المجاهدون في حِلٍّ من الرجوع إلىٰ وطنهم وأهليهم.

ولعلَّ جبل عاملٍ لم يشهدْ يوماً أبهج ولا أحشد من يوم عودته، ولعلَّه لن يشهد يوماً كهذا اليوم، يُحشَـر فيه الجبل من جبله وساحله، في بحرٍ من الناس يموج بعضه فوق بعض، وتطفو فوقه الأعلام رفّافة بالبشـر، منحنيةً بالتحيَّة والهتاف، مجلجلة كجلجلة الرعد في أُذُن الجوزاء.

ويبدأ من ذلك اليوم موسمٌ للشعر، تفتَّقتْ فيه القرائح العاملية عن ذخائرَ ممتعة من الأدب العالي، وتفتَّحت سلائقهم عن أصدق العواطف، وأسمىٰ المشاعر تنبض بها قوافيهم تهزُّ المحافل في إبداعٍ وتجويد، صباح مساء، ولقد امتدَّ هذا الموسم

الأدبي زمناً طويلاً اجتمع في أيّامه ولياليه الناس، ضخم القيمة، ضخم الحجم، يمكن اعتباره مصدراً لتاريخ الفكر والسياسة في جبل عامل خلال هذه الفترة.

منزلته في العالم الإسلامي:

ترتسم علىٰ كلِّ أُفق من آفاق هذا العالم الإسلامي، أسماء معدودة لرجال معدودين، امتازوا بمواهب وعبقريات، رفعتْهم إلىٰ الأوج الأعلىٰ من آفاقهم، فإذا أسماؤهم كالنجوم اللامعة تتلألأُ في كَبِد السماء.

أمَّا الذين ترتسم أسماؤهم في كلِّ أُفق من تلك الآفاق فقليل، وقليلٌ هم، وليسوا إلَّا أُولئك الذين علتْ بهم الطبيعة، فكان لهم من نبوغهم النادر ما يجعلهم أفذاذاً في دنيا الإسلام كلّها، ومن هؤلاء الأفذاذ سيّدنا المؤلِّف (أطال الله عمره)، فقد شاءتِ الإرادة العليا أنْ تبارك علمه وقلمه، فتخرج منهما للناس نتاجاً من أفضل النتاج، وقد لا أكون مبالغاً حين استبيح لقلمي أنْ يُسجِّل: أنَّ السيّد المؤلِّف يتقدَّم بما أنتج إلىٰ الطليعة من علماء الشيعة الذين كرَّسوا حياتهم طوال أعمارهم لخدمة الدين والمذهب. وبهذا استحقَّ أنْ يتصدَّر مجلس الخاصَّة في العالم الإسلامي اليوم.

حياته العلمية:

وقد يلوح ممَّا قدَّمنا أنَّ المشاكل الاجتماعية المتراكمة من

حوله، تصرِفه عن النظر في حياته العلمية، وتُزحزحه عن عمله الفنّي. والواقع أنَّ رجلاً يُمنىٰ بما مُني به (سيّدنا) ينصرف عادةً عمَّا خُلِقَ له من علمٍ وتأليف، فإنَّ ما يحيط به من المشكلات يضيق بالنظر في أمر المكتبة والكتابة، لولا بركة وقته، وسعة نفسه، وقدرة ذهنه.

فهو _ علىٰ حين أنَّه يُوفي حقَّ تلك المشكلات الشاغلة _ يُوفي حقّ علمه، فيبلغ من المكتبة نصيبَ الذي تحتاجه حياتُه العلمية، وهو منذ ترك النجف الأشرف علىٰ اتِّصال مستمرٍّ بالبحث والمطالعة والكتابة والمناظرة. يخلو كلَّ يوم في فتراته إلىٰ مكتبته يستريحُ إلىٰ ما فيها من موضوعات، وينسىٰ مِن ورائها من حياةٍ مرهقةٍ لاغبة.

مؤلَّفاته:

وليس أدلّ علىٰ هذا من إنتاجه، هذا الإنتاج الغزير الثريُّ النبيل. وإنَّ مؤلَّفاتِه لتشهد بأنَّه من الحياة العلمية؛ كمن ينصرف إليها، ولا يُشغَل بغيرها، وأدلُّ ما يدلُّ منها علىٰ ذلك كيفية مؤلَّفاته لا كمِّيتها؛ فهي وإنْ كانتْ كثيرة حتَّىٰ بالقياس إلىٰ رجلٍ يتفرَّغ إليها، فإنَّها من الأصالة والعمق والاستيعاب، حيث لا تدلُّ علىٰ أنَّ مؤلِّفها رجلٌ يمتحنُه الناس بتلك المشاغل، ويَبتلونه بما عندهم من مشاكل، فهي _ بما فيها من قوَّةٍ ومتانةٍ وغَوْرٍ ونحتٍ وتفكيرٍ _ أدلُّ علىٰ اتِّصاله الدائم بحياته العلمية من جهة، وأدلُّ علىٰ فضله وخصوبة سليقته من جهةٍ أُخرىٰ.

بهذا الميزان يَرجح علمُ الرجل وفضلُه، ثمّ يَرجح به امتيازُ ما كتب، وهو امتيازٌ قليل النظير؛ فإنَّ المؤلِّفين المكثرين، كثيراً ما تظهر عليهم السطحية، ويُميِّز كتبَهم الحشوُ، أمَّا المؤلِّف فليس فيما قرأْنا من مؤلَّفاته مبتذَلٌ سطحيٌّ، ولا رخيصٌ سوقيٌّ، بل كلُّ ما كتب أنيقٌ رقيق، رفيعٌ عميق، يجمع بين سموّ الفكر وترف اللفظ، وهو ما أشرنا إليه في صدر كلامنا من كونه حريصاً علىٰ المزاوجة بين علمه وفنّه، فإذا قرأتَ فصلاً علمياً خالصاً خِلْتَ _ لقوَّة أُسلوبه ونصاعته _ أنَّك تقرأ فصلاً أدبياً يروْعك جماله المستجمع لكلِّ العناصر الأدبية.

علىٰ أنّا حين نتجاوز هذه النقطة، فمؤلَّفاته كثيرة من حيث الكمّية أيضاً، وهذا يضاعِف القيمة. إنَّه يدلُّ علىٰ مَلَكة خصبةٍ أصيلةٍ لا يُؤخِّرها أشدُّ العوائق عن الإتقان، وإنَّها لتُثبِت له بطولةَ فكرٍ، وإليك ثبتاً بآثار هذه البطولة.

لآلؤه المنضودة:

١ _ المراجعات: هذا نموذجٌ صادق لما كتب، ولا أُريد أنْ أُحدِّثك عنه فإنَّ لسانه أبيَن من حديثي وأنطق. طُبِعَ في مطبعة العرفان بصيداء سنة (١٣٥٥) ونفدت نسَخه، وتُرجِم إلىٰ اللغة الفارسية، وبلغني أنَّه تُرجِم إلىٰ اللغة الإنكليزية، ترجمه السيّد زيد الهندي. وإنَّه تُرجِم إلىٰ اللغة الأُوردية أيضاً.

٢ _ الفصول المهمَّة في تأليف الأُمَّة: كتابٌ من أجَلِّ

الكتب الإسلاميَّة، يبحث مسائل الخلاف بين السُّنَّة والشيعة علىٰ ضوء (الكلام) والعقل والاستنتاج والتحليل. تمَّ تأليفه سنة (١٣٢٧هـ)، وطُبِعَ مرَّتين بصيداء _ جبل عامل _ زاد فيه بالطبعة الثانية سنة (١٣٤٧هـ)، والفصول المهمَّة يغنيك عن مكتبة كاملة في موضوعه. يقع في (١٩٢) صفحة قطع النصف.

٣ _ أجوبة مسائل موسىٰ جار الله: كتابٌ علىٰ صغر حجمه، عظيم الإحاطة واسع المعلومات، وهو _ كما يدلُّ عليه اسمه _ أجوبةٌ عن عشرين مسألة سأل بها موسىٰ جار الله علماءَ الشيعة، وهو يظنُّ أنَّ فيها شيئاً من الإحراج، كتكفيرِ الشيعة لبعض الصحابة ولعنِهم، وكنسبة القول بتحريف القرآن للشيعة، ونسبة تحريم الجهاد إليهم أيضاً، وكمسائل البداء والمتعة والبراءة والعَوْل وما إلىٰ ذلك، فكانت أجوبةً من أشدِّ ما يكون، تَستقي من العلم والتوفّر، وتقوم علىٰ البرهان والمنطق، فلا تترك أثراً للشكِّ، ولها مقدّمةٌ في الدعوة إلىٰ الوحدة، وخاتمةٌ في جهل السائل بكتب الشيعة، وفي بعض ما في كتب السُّنَّة من أَخلاط. يقع في (١٥٢) صفحة من القطع الصغير، طُبِعَ في مطبعة العرفان بصيداء سنة (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م).

٤ _ الكلمة الغَرّاء في تفضيل الزهراء: تقع في (٤٠) صفحة من قطع النصف طُبِعَت مع الفصول المهمَّة في الطبعة الثانية، وهي من أعمق الدراسات وأصحِّها منهجاً واستنتاجاً وأدلّها علىٰ تدفّق القلم الينبوع.

٥ _ المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة: طُبِعَ منها المقدّمة وتقع في اثنين وسبعين صفحة بقطع النصف، يشرح فيها فلسفة المآتم الحسينية وأسرار شهادة الطفّ شرحاً دقيقاً رائعاً.

٦ _ أبو هريرة: طُبِعَ سنة (١٣٦٥هـ)، بمطبعة العرفان في صيداء وهو نسَقٌ جديد في التأليف، وفتْحٌ في أدب التراجم بطراز المستوعِب المحلِّل، ولعلَّه من أجلِّ ما تُخرِجه المطابع الحديثة بحثاً وعمقاً وأُسلوباً. يبحث حياة أبي هريرة وعصره وظروفه وعلاقاته وأحاديثه وعناية الصحاح الستِّ بروايته علىٰ ضوء العلم والعقل.

٧ _ بُغية الراغبين: (مخطوط)، كتابٌ عائليٌّ خاصٌّ يُؤرِّخ لشجرة (شرف الدين) ومن يتَّصل بهم من قريب، وهو كتابٌ ضخم جليل ممتاز في أدب التراجم بطريقته الخاصَّة، وتنسيقه المتقَن، وربَّما ترجم بعض الأعلام من أساتذة المترجَمين في الكتاب وتلامذتهم، وقد يُترجِم عصورهم وظروفهم، وبهذا تقف منه علىٰ كتابٍ أدبيٍّ ممتع رائع، بل إنَّه تاريخُ أجيالٍ، بتاريخ رجال.

٨ _ فلسفة الميثاق والولاية: وهي رسالة فذَّة في موضوعها. طُبِعَت في صيداء سنة (١٣٦٠هـ).

٩ _ ثبت الأثبات في سلسلة الرواة: ذكَر فيه شيوخه من أعلام أهل المذاهب الإسلاميَّة بكلِّ متَّصل الإسناد بالنبيِّ صلى الله عليه وآله وبالأئمَّة عليهم السلام وبالمؤلَّفات ومؤلِّفيها من طرقٍ كثيرةٍ متعدِّدةٍ يروي فيها قراءةً وسماعاً وإجازةً من أعلام الشيعة الإماميَّة والزيدية،

وعن أعلام السُّنَّة، واستيعابُ طرقه كلّها طويلٌ، اقتصر منه علىٰ ما جاء في الثبت وقد طُبِعَ في صيداء مرَّتين.

نفائسه المفقودة:

وله غير هذه الروائع الخالدة نفائس، لولا عدوان سنة العشرين عليها بالحَرق والتمزيق لكانت من الذخائر المعدودة في كنوز العقل والفكر، ولكنَّها فُقِدَت في تلك الأحداث المؤلمة، فمُني بفقدانها العلمُ بخسارةٍ عسىٰ أنْ يتَّسع وقتُ سيّدنا للتعويض عنها بإحيائها من جديد، ونسردها فيما يلي كما يذكرها المؤلِّف في آخر تعليقته علىٰ الكلمة الغرّاء.

١ _ شرح التبصرة في الفقه: علىٰ سبيل الاستدلال، خرج منه ثلاثة مجلَّدات تتضمَّن كتب الطهارة والقضاء والشهادات والمواريث.

٢ _ تعليقةٌ علىٰ الاستصحاب من رسائل الشيخ _ في الأُصول _ في مجلَّدٍ واحدٍ.

٣ _ رسالةٌ في منجّزات المريض، استدلالية.

٤ _ سبيل المؤمنين _ في الإمامة _ يقع في ثلاثة مجلَّدات.

٥ _ النصوص الجليَّة، في الإمامة أيضاً، فيه أربعون نصَّاً، أجمعَ علىٰ صحَّتها المسلمون كافّة، وأربعون من طرق الشيعة مجلوَّة بالتحليل والفلسفة.

٦ _ تنزيل الآيات الباهرة: في الإمامة أيضاً، وهو مجلَّدٌ

واحد يبتني علىٰ مائة آية من الكتاب، نزلت في الأئمَّة بحكم الصحاح.

٧ _ تحفة المحدِّثين فيما أخرج عنه الستَّة من المضعَّفين. وهو كتابٌ بِكرٌ في الحديث، لم يُكتبْ مثله من قبْل.

٨ _ تحفة الأصحاب في حكم أهل الكتاب.

٩ _ الذريعة: ردٌّ علىٰ بديعة النبهاني.

١٠ _ المجالس الفاخرة: أربعة مجلَّدات، الأوَّل في السيرة النبوية، والثاني في سيرة أمير المؤمنين والزهراء والحسن، والثالث في الحسين؛ والرابع في الأئمَّة التسعة عليهم السلام.

١١ _ مؤلِّفو الشيعة في صدر الإسلام: نُشِرَ بعض فصوله في مجلَّة العرفان بصيدا (راجع العرفان في مجلَّداته الأوَّل والثاني).

١٢ _ بُغية الفائز في نقل الجنائز: نُشِرَ أكثرها في العرفان.

١٣ _ بُغية السائل عن لثْم الأيدي والأنامل: رسالةٌ علمية أدبية فكاهية، فيها ثمانون حديثاً من طريقنا وطريق غيرنا.

١٤ _ زكاة الأخلاق: نَشرتِ العرفانُ بعض فصوله.

١٥ _ الفوائد والفرائد: كتابٌ جامع نافع.

١٦ _ تعليقةٌ علىٰ صحيح البخاري.

١٧ _ تعليقةٌ علىٰ صحيح مسلم.

١٨ _ الأساليب البديعة في رجحان مآتم الشيعة: يَبتني علىٰ الأدلَّة العقلية والنقلية، وهو في بابه بِكرٌ جديد.

وله بدايات _ وراء ذلك _ في مواضيعَ شتّىٰ، بعضُها ذهب في المفقودات وبعضها أُعيد ولا يزال في سبيل الإتمام.

ومؤلَّفاته كلُّها تمتاز بدقَّة الملاحظة، وسَعة التتبُّع وشمول الاستقصاء وصحَّة الاستنتاج، وشدَّة الصقل، وأمانة النقل وترابط الأجزاء في خصال تتعب الناقد وتحفظ الحاقد.

ثقافته:

ولعلَّك ألمَمْت بنواحي ثقافته من مؤلَّفاته، وممَّا حدَّثناك عنه في هذه الكلمة، فهو _ كما علمتَ _ أُسِّس، وقام بناؤه في النجف الأشرف، فكان إماماً في اللغة وعلوم العربية وآدابها، والمنطق، والتاريخ، والحديث، والتفسير، والرجال، والرواية والأنساب، والفقه والأُصول، والكلام؛ وما يتَّصل بهذه العلوم من روافد.

هو بالعلوم الإسلاميَّة وما إليها فارسٌ معلَّم، لا يُجارىٰ في حلباتها، ولا يُلحق في مضاميرها، ويمتاز _ بالإضافة إلىٰ ذلك _ بأدبه القويّ الحافل، وبما يتَّصل به من الأسرار النفسية والاجتماعية والنقد، له في ذلك سليقةٌ ملهمة ومَلَكةٌ قويَّة ترافقان حديثه وقلمه، محاضرةً وخطابةً، تأليفاً وكتابةً، إنَّه علىٰ الإجمال أفضل صورة للعالِمِ الإسلامي الضليع الجامع.

أخلاقه ومواهبه:

هو طويل الأناة، ثقيل الحصاة، واسع الصدر، ليِّن الطبع،

قويُّ القلب مُهابٌ، لـه روعـةٌ في الـنفس وتـأثير يـدفعانِك لاحترامـه وحبِّه وإنْ جهِلتَه.

وهـو شـديد الشـكيمة في الحـقِّ متوقّـد الحماسـة للـدين، لا يَعرف هـوادةً ولا لِيناً حـين تهـبُّ بـادرة للبغـي أو الباطـل، عـلىٰ أنَّـه متواضع كريم هشّ.

وللإنصـاف في نفسـه موضـعٌ يسـوّي بـين القريـب والبعيـد، الحقُّ رائده، فـلا يمنعـه حبّـه لأحبّائـه مـن إقـامتهم عـلىٰ العـدل، ولا يمنعه إنصافه _ وهـو يحكـم _ مـن الاحتفـاظ بالحـبِّ في زوايـا نفسـه لمن يُحِبُّ، ومن هنا كان العـدوّ والصـديق عنـده سـيّان في الحكـم عـلىٰ ما يأتيان من حُسْن أو قبح، في آثارهما وأفعالهما.

ومن هنـا أيضـاً كـان قـدوةً: في الـورع وصـفاء الـنفس، ونقـاء الضمير، وقول الحقِّ، وإلىٰ جانـب هـذا كلِّـه لـه رأيٌ حصـيف، ونظـر بعيد، يسبر أغـوار النـاس، ويصـل إلىٰ حقـائق الأُمـور وأعماقهـا؛ فـلا يخدع من حال، ولا يغـشُّ في ظـاهر، ولا يفتـل عـن صـواب ولا يغـرُّ في رياء.

يُعنـىٰ بأقـدار النـاس، ويـوفّيهم فـوق مـا يسـتحقّون، ويُشـجِّعهم عـلىٰ إيتـاء الخـير، ويرهـف الناشـئة العلميـة للإتقـان والتجويـد، فيبـالغ لهـم في الاستحسـان، ويكيـل لهـم مـن الكَلِـم الطيّب، والنَّوال الكريم؛ ما يدفعهم إلىٰ ما يرمي إليه من تقدُّمهم.

ولعلَّـه لهـذه الخـلال الكريمـة أثـرٌ في صـفاء مواهبـه، وقـوَّة تـأثيره، وصـدق كِفاياتـه؛ فهـو مـن أفصـح النـاطقين بالضـادّ حـين

يتحدَّث، وأبلَّهم ريقاً حـين يخطـب، ومـن أنفـذ النـاس للـنفس حـين يعِـظ، وأحكمهـم بالقضـاء وأعـدلهم بـالحكم وأبيَـنهم بالحجَّـة، وأفقههم بالحياة.

أسفاره:

في سـنة تسـعٍ وعشـرين وثلاثمائـة وألـف هجريـة زار مصـر زيـارةً علميـةً، كـما حـدَّثناك، اجتمـع فيهـا بأفـذاذ الحيـاة العقليـة في مصـر، وعـلىٰ رأسـهم الشـيخ سـليم البشـري المـالكي شـيخ الجـامع الأزهـر في عصـره، وأنتجـت اجتماعاتـه بـه، ومراسـلاته لـه هـذا الكتاب، وحسْبُه فائدةً من هذه الزيارة (المراجعات).

وفي حـوالي سـنة (١٣٢٨هــ) زار المدينـة المنـوَّرة، وتشـرَّف بأعتاب النبيِّ صلى الله عليه وآله وضرائح أئمَّة البقيع عليهم السلام .

وفي ثـمان وثلاثـين كانـت الهجـرة الدينيـة السياسـية التـي عرفتَ شيئاً مـن حـديثها، وفيهـا زار دمشـق ومصـر وفلسـطين، وفي كلِّ هذه البلاد كانـت لـه فوائـد علميـة ومحـاضرات قيِّمـة، كـما تَلمـح ذلك فـيما حـدَّثناك بـه في مشـايخه في الروايـة؛ وفي سـنة (١٣٤٠هــ)، حـجَّ البيـت مـن طريـق البحـر، في عهـد المغفـور لـه الملـك حسـين، وحـجَّ معـه خلـقٌ كثـير مـن جبـل عامـل في ذلـك الموسـم، وكـان الموسـم في ذلـك العـام مـن أحفـل مواسـم الحـجّ وأكثرهـا ازدحامـاً وإقبـالاً عـلىٰ هـذه الفريضـة، ولعـلَّ مكّـة لم تشـهدْ مثـل هـذا الموسـم منذ عهد بعيد، وكان في الحجيج تلـك السَّـنة كثـيرٌ مـن الأعـلام مـن

علماء وزعماء من مختلف الأقطار، وكان السيِّدُ أبرزهم بين تلك الجموع اسماً، وأعلاهم مكانةً، وأرفعهم بيتاً، وأسخاهم كفّاً.

وهو أوّل عالمٍ شيعيٍّ أَمَّ هذه الجماهير الضاغطة المزدحمة في المسجد الحرام بمكّة المشرَّفة، وهي أوَّلُ مرَّة تقام فيها الصلاة وراء إمام شيعيٍّ علىٰ هذا النحو العلنيِّ تجتمع فيه الأُلوف معلنةً في غير تقيَّة.

ومن هنا كان حجُّه مشهوراً يتحدَّث عنه الناس في سائر الأقطار الإسلاميَّة، وقد احتفىٰ به الملك الحسين بن علي أجمل احتفاء وأفضله، واجتمعا أكثر من مرَّة وغسَلا معاً الكعبة.

وفي أواخر سنة (١٣٥٥هـ)، زار أئمَّة العراق، وجدَّد العهد بأهله وأرحامه، واستقبله يوم وروده الوزراء والأعيان والزعماء، وعلىٰ رأس الجميع سماحة السيِّد محمّد الصدر من بغداد إلىٰ جسر الفلوجة، في أرتالٍ من السيّارات، واستُقبِل في كربلاء وفي النجف الأشرف باستقبالات علميةٍ وشعبيةٍ رائعةٍ فخمةٍ قليلةِ النظير.

وأكاد أسمعه يهتف حين أقبل علىٰ مرابع صباه وشبابه:

واجهشتُ للتوباد حين رأيتُه   وكبَّر للرحمن حين رآني

وطبيعيٌّ أن يجهش هو شوقاً إلىٰ هذه المعاهد الأنيسة، وأن تُكبِّر هي ترحيباً به وفرحاً بإقباله بعد فراقٍ امتدَّ أمدُه سنين طوالاً.

ألم يصدر هو عنها راوياً مروياً؟ ألم تحفل هي به غريداً يملأ أجواءها بأفضل ممَّا يمتلئ به معهدٌ من طلّابه العبقريين؟

بلىٰ، تبادلا الحنين والشوق واللوعة والتحيَّة، واستجابتْ لهذا التبادل الروحيّ النقيّ داعي البرّ والوفاء في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء. فكانت حفلاتٌ زاهرة زاهية، قد بعُد العهد به عن مشاهدها وأعلامها.

وكانت اجتماعاته بالأعلام من أهل العلم، ورجال البحث، آهلة بالفرائد، في مختلف فروع العلم، وشتّىٰ مسائله.

وتابع من العراق سفره إلىٰ ايران، فتشرَّف بزيارة الإمام الرضا عليه السلام، وعرَّج في طريقه علىٰ قم وطهران وغيرهما من مدن إيران، ولقي في جميع تلك المدن من مراسيم الحفاوة ما تفرضه شخصيته المحبوبة العظيمة.

آثاره وإنشاءاته:

افتتح أعماله الإنشائية بوقفِ حسينيةٍ، أعدَّها ليجتمع إليها الناس في مختلف الأوقات والظروف والدواعي، يُعظِّمون فيها الشعائر، ويتلقّون فيها دروس الوعظ والإرشاد، ويقيمون فيها الصلاة، فلم يكن للشيعة مسجدٌ في مدينة صور يوم جاءها السيِّد؛ لذلك تملَّك داراً، ثمّ وقفها حسينيَّة في بدء التأسيس، ثمّ حين سنحت الفرصة أنشأ مسجداً من أضخم المساجد بناءً، وأجملها هيكلاً، له قبَّتان عظيمتان، ومنارة شامخة، وباحة رائعة

أمام إيوانٍ واسع، يتّصل بأبواب المسجد الرحْب، ويقوم في وسطه عمودان من الآثار الفينيقية، يحملان القبّتين، وخلف المسجد ممَّا يلي المحراب فِناءٌ كبير يتّصل بخارج البلد.

وحين تمَّ هذا المسجد الجامع العظيم، بدأ بإنشاء ما كان يشغل تفكيرَه من قديم، أعني إنشاء مدرسةٍ حديثةٍ تُمثِّل مبدأه التربويّ في كلمته السائرة (لا يُنشَر الهدىٰ إلَّا من حيث انتشر الضلال). علىٰ أنَّ النهوض بشعبٍ باديءٍ خاضعٍ للسلطات الإقطاعية، مُعرَّض للصدمات، ممتحَنٍ بالعراقيل، لذلك جاء مشروعه الضخْمُ هذا علىٰ مراحل؛ ولولا بطولةٌ عرفناها مبدعةٌ قادرة في السيِّد حفظه الله لما تخطّىٰ المشروعُ أُولىٰ مراحله.

أنشأ في أُولىٰ المراحل، علىٰ مدخل المدينة، ستَّة مخازن، وشيَّد علىٰ سطحها داراً واسعة مراعياً فيها أن تكون يوماً ما المدرسة المرجُوَّة، لكنَّ إنجاز هذا المشروع لم يكن يومئذٍ ممكناً لمعارضةٍ كانت من السلطة ومن يمشي في ركابها من ذوي المصالح الفردية، وبهذا اضطرَّ إلىٰ الاكتفاء يومئذٍ بهذا القدر، ينتظر الفرصة المواتية.

وكانت فترة استجمام طويلة نشِط بعدها سنة (١٣٥٧هـ)، فإذا الدار هي المدرسة الجعفرية المثلىٰ، وقد أضاف إليها في الدَّور الأوَّل مسجداً خاصَّاً بالمدرسة وطلَّابها، ورفع علىٰ سطحه بناءً آخر يماثل المدرسة أُضيف إليها أيضاً، فكانت المدرسة بذلك مؤلَّفة من نحو خمس عشرة غرفة عدا الأبهاء والساحات.

رَفع من الجهة الأُخرىٰ نادياً فريداً، سمّاه (نادي الإمام جعفر الصادق)، طوله اثنان وعشرون متراً ونصف المتر، وعرضه خمسة عشر متراً ونصف المتر، وقد أعدَّه للاحتفالات والمواسم العلمية والدينية والاجتماعية والمدرسية. ثمّ أَسَّس بعد كلّ ذلك مدرسة للإناث في سنة إحدىٰ وستّين هجرية، وهي تتوخّىٰ ما توخَّتْه مدرسة الذكور من التوفيق في التربية بين المناهج الصالحة الضامنة لحياةٍ أمثل وأفضل.

وموقع المدرسة والنادي من أجمل المواقع بروعة المنظر، وطلاقة المرأىٰ يسبَح النظر منها في عُباب ذلك الخِضمِّ الجميل، ويمتدُّ منه إلىٰ غير نهاية، فإذا سئم البحر وتزخاره، انطلق منه في جهةٍ أُخرىٰ إلىٰ السهول ومِن خلفها الجبال المتساندة، تحتضن القرىٰ علىٰ مرمىٰ العين، ويذهب البصر، من هنا وهنا نشيطاً يحلم بذلك الجمال الساحر الآسر، ويسرح منعماً متجوّلاً لا تُعيقه عقَبة دون المتعة والانشراح.

فإذا وقفتَ إلىٰ مجموعة هذه الجبال الضخْمة المتَّصل بعضُها ببعض، القائم بعضها علىٰ بعض، وقفتَ منها إلىٰ صرحٍ عظيمٍ مَشيْدِ الأركان، متينِ البُنيان يَروعُك بجماله الهندسيّ وفخامته العمرانية. ثمّ هو يَروعك أكثر فأكثر، إذا وقفتَ علىٰ نتاجه الخصْب الذي يجمع إلىٰ كثرة (الكمِّ) جودة (النوع).

ومع ذلك فلا يزال _ علىٰ تمامه وكماله _ نواةً بالقياس إلىٰ طماح سيِّدنا المؤلِّف؛ فهو قد تملَّك في جنوبها أرضاً واسعة كبيرة،

وألحَقها بالمؤسّسة ليتمَّ بها مشاريعه الخيريَّة، وأغراضه الإسلاميَّة، وينتهي إلىٰ تأسيس جامعة تُلقِّن طلَّابها أحسن المبادئ، في أوسع المعارف، وهو يرىٰ أنَّ هذه الطريق خيرُ طريقٍ لعلاج الخطر الداهم، ولحفظ الجيل الجديد، الناسِلِ من صفوفنا إلىٰ صفوفٍ قد تُضطرُّه أنْ يعادي صفوفنا.

أخَذ اللهُ بيده لما فيه صلاحُ الدنيا والدين، ونفَع به الإسلامَ والمسلمين، والحمد لله ربّ العالمين.

الكاظمية (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م)

مرتضىٰ آل ياسين

الحسنُ والصلح

(تصدير كتابِ صلحِ الحسن للشيخ راضي آل ياسين)

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

كـان صـلحُ الحسـنِ عليه السلام مـع معاويـة مـن أشـدِّ مـا لقيَـه أئمَّـةُ أهل البيت من هذه الأُمَّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقـيَ بـه الحسـنُ عليه السلام محنـاً يضـيق بهـا الوسـع، لا قـوَّةَ لأحـدٍ عليهـا إلَّا بـالله عزّ وجلّ. لكنَّـه رضَـخ لهـا صـابراً محتسـباً، وخـرج منهـا ظـافراً بـما يبتغيـه مـن النُّصـح لله تعـالىٰ، ولكتابـه عزّ وجلّ، ولرسـوله، ولخاصَّـة المسـلمين وعـامَّتهم، وهـذا الـذي يبتغيـه ويحـرصُ عليـه في كلِّ ما يأخذ أو يدَعُ من قولٍ أو فعل.

ولا وزنَ لمـن اتَّهمـه بأنَّـه أخْلـد بصـلحه إلىٰ الدَّعَـة، وآثـر العافيـة والراحـة، ولا لمـن طوَّحـتْ بهـم الحماسـة مـن شـيعته فتمنَّـوا عليه لو وقف في جهـاد معاويـةَ فوصـل إلىٰ الحيـاة مـن طريـق المـوت، وفاز بالنصر والفتح مـن الجهـةِ التـي انطلـق منهـا صِـنوُه يـوم الطـفِّ إلىٰ نصرِه العزيز، وفتْحِه المبين.

ومن الغريب بقاءُ النـاس في عشـواءَ غـمَّاء مـن هـذا الصـلح إلىٰ يومهم هـذا، لا يقـوم أحـدٌ مـنهم في بيـان وُجْهـة الحسـن في صـلحه، بمعالجـةٍ موضـوعيةٍ مسـتوفاةٍ ببيانهـا وبيِّناتهـا، عقليـةً ونقليـةً، وكـم كنـتُ أحـاول ذلـك، لكـنَّ الله عزّ وجلّ شـاء بحكمتـه أنْ يخـتصَّ بهـذه

المأثرة من هـو أولىٰ بهـا، وأحـقُّ بكـلِّ فضـيلة، ذلـك هـو مؤلِّـف هـذا السِّـفْر البِكـر (صـلح الحسـن)، فـإذا هـو في موضـوعه فصـلُ الخطاب، ومِفصل الصواب، والحدُّ الفاصل بين الحقِّ والباطل.

وقفتُ منه علىٰ فصـولٍ غُـرٍّ، تُمثِّـل فضـلَ مؤلِّفهـا الأغـرِّ الأبـرِّ، في كلِّ ما يشـتركان فيـه مـن التحقيـق، والدقَّـة والاعتـدال، وسـطوع البيـان والبرهـان، والتـأنّق والتتبُّـع، والـورع في النقـل، والرحابـة في المنـاظرة، والإحاطـة بـما يناسـب الموضـوع، مـع سـهولة الأُسـلوب، وانسـجام التراكيـب، وبلاغـة الإيجـاز إذا أوجَـز، وقبـول الإطنـاب إذا أطنَب.

فالكتـاب يخضـع لفكـرٍ مـنظّمٍ مبـدِعٍ حُجَّـة، يصِـل وحدتـه بجداولَ دفاقـةٍ بـالثراء العقـليّ والـنقليّ، وبـروادفَ غنيَّـةٍ كـلّ الغنـىٰ، في كلِّ ما يرجع إلىٰ الموضوع، ويُتِمُّ عليه عناصرَه القيّمة.

فالأناقـة فيـه تخـامر الاسـتيعاب، والوضـوح يـلازم العمـق، والنقد التحليليُّ مرتكَزُ هذه الخصائص.

أمَّـا المؤلِّـف _ أعـلىٰ الله مقامـه _ فإنَّـك تسـتطيع أن تستشـفَّ ملامحـه، مـن حيـث تنظـر إلىٰ مواهبـه في كتابـه هـذا، ولـو لم أرَه لقـدرتُ أنْ أرسـم لـه صـورةً أسـتوحي قسَـماتها مـن هـذا السِّـفْر، إذ يُريكَهُ واضحَ الغُـرَّة، مشـرقَ الوجـه، حلـوَ الحـديث، هـادئَ الطبـع، واسـع الصـدر، لـيِّن العَريكـة، وافـر الـذِّهن، غزيـر الفهـم والعلـم، واسع الروايـة، حسـنَ الترسُّـل، حلـو النُّكتـة، لطيـف الكنايـة، بـديع الاستعارة، تنطِق الحكمـةُ مـن محاسـن خِلالـه، ويتمثَّـل الفضـلَ بكـلِّ

معانيه في منطقه وأفعاله، لا ترىٰ أكرم منه خُلُقاً، ولا أنبل فطرةً، عليماً زاخراً بعلوم آل محمّدٍ، علّامة بحّاثة، أمعنَ في التنقيب عن أسرارهم، يستجلي غوامضَها، ويستبطن دخائلها، لا تفوتُه منها واردةٌ ولا شاردةٌ، إلىٰ خصائص في ذاته وسماته يُمثّلها كتابه هذا بجلاء.

ومَن أمعَن فيما اشتمل عليه هذا الكتاب، من أحوال الحسَن ومعاوية، علم أنّهما لم ترتجلْها المعركة ارتجالاً، وإنّما كانا في جبهتَيهما خليفتين، استخلفَهما الميراث علىٰ خُلُقين متناقضين: فخُلُق الحسن إنّما هو خُلُق الكتاب والسُّنَّة، وإن شئتَ فقُل: خُلُق محمّدٍ وعليٍّ. وأمّا خُلُق معاوية فإنّما هو خُلُق (الأُمويَّة)، وإن شئتَ فقُل: خُلُق أبي سفيان وهند، علىٰ نقيض ذلك الخُلُق.

والمتوسِّع في تاريخ البيتَين وسيرة أبطالهما من رجالٍ ونساء يدرك ذلك بجميع حواسِّه.

لكنْ لـمّا ظهر الإسلام، وفتح اللهُ لعبده ورسوله فتحَه المبين، ونصَرَه ذلك النصر العزيز، انقطعتْ نوازي الشرِّ (الأُمويِّ)، وبطلتْ نزَعات أبي سفيان ومن إليه مقهورةً مبهورةً، متواريةً بباطلها من وجه الحقِّ الذي جاء به محمّدٌ عن ربِّه ﷻ، بفُرقانه الحكيم، وصراطه المستقيم، وسيوفه الصارمة لكلِّ من قاومَه.

وحينئذٍ لم يجدْ أبو سفيان وبنوه ومن إليهم بُدّاً من الاستسلام، حقناً لدمائهم المهدورة يومئذٍ لو لم يستسلموا،

فدخلوا فيما دخل فيه الناس، وقلوبهم تنغل بالعدواة له، وصدورهم تجيش بالغِلِّ عليه، يتربَّصون الدوائر بمحمّدٍ ومن إليه، ويبغون الغوائل لهم. لكنَّ رسول الله ﷺ كان _ مع علمه بحالهم _ يتألَّفهم بجزيل الأموال، وجميل الأقوال والأفعال، ويتلقّاهم بصدرٍ رحْبٍ، ومحياً منبسط، شأنه مع سائر المنافقين من أهل الحقد عليه، يبتغي استصلاحهم بذلك.

وهذا ما اضطرَّهم إلىٰ إخفاء العداوة له، يطوون عليها كشحَهم خوفاً وطمعاً، فكاد الناس بعد ذلك ينسَون (الأُمويَّة) حتّىٰ في موطنها الضيِّق _ مكّة _.

أمَّا في ميادين الفتح بعد رسول الله ﷺ، فلم تُعرَفِ (الأُمويَّة) بشيء، سوىٰ أنّها من أُسرة النبيِّ ومن صحابته.

ثمّ أُتيح بعد النبيِّ لقوم ليسوا من عترته، أنْ يتبوَّؤوا مقعده، وأُتيح لمعاويةَ في ظلِّهم أنْ يكونَ من أكبر ولاة المسلمين، أميراً من أوسع أُمرائهم صلاحيةً في القول والعمل.

ومعاويةُ إذ ذاك يتَّخذ بدهائه من الإسلام سبيلاً يزحف منه إلىٰ المُلْك العَضوض، ليتَّخذ به دين الله دَغَلاً، وعباد الله خَوَلاً، ومال الله دُوَلاً، كما أَنذر به رسول الله ﷺ، فكان ذلك من أعلام نبوَّته.

نشط معاوية في عهد الخليفتين الثاني والثالث، بإمارته علىٰ الشام عشرين سنةً، تمكَّن بها في أجهزة الدولة، وصانَع الناسَ فيها وأطمَعهم به، فكانتِ الخاصَّة في الشام كلّها من أعوانه، وعظُم خطره في الإسلام، وعُرِفَ في سائر الأقطار بكونه من قريش _

أُسرة النبيِّ صلى الله عليه وآله ـ، وأنَّه من أصحابه، حتَّىٰ كان في هذا أشهر من كثيرٍ من السابقين الأوَّلين الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه، كأبي ذرٍّ وعمّار والمقداد وأضرابهم.

هكذا نشأتِ (الأُمويَّة) مرَّةً أُخرىٰ، تُغالِب الهاشميَّة باسم الهاشمية في علَنها، وتكيد لها كيدها في سرِّها، فتندفع مع انطلاق الزمن تخدع العامَّة بدهائها، وتشتري الخاصَّة بما تُغدِقه عليهم من أموال الأُمَّة، وبما تؤثِرهم به من الوظائف التي ما جعلها الله للخوَنة من أمثالهم، تستغلُّ مظاهر الفتح وإحراز الرضا من الخلفاء.

حتَّىٰ إذا استتبَّ أمر (الأُمويَّة) بدهاء معاوية، انسلَّتْ إلىٰ أحكام الدين انسلالَ الشياطين، تَدسُّ فيها دسَّها، وتفسد إفسادها، راجعة بالحياة إلىٰ جاهليةٍ تبعث الاستهتار والزندقة، وفق نهجٍ جاهليٍّ، وخطَّةٍ نفعيَّةٍ، ترجوها (الأُمويَّة) لاستيفاء منافعها، وتُسخِّرها لحفظ امتيازاتها.

والناس ـ عامَّة ـ لا يفطنون لشيءٍ من هذا، فإنَّ القاعدة المعمول بها في الإسلام ـ أعني قولهم: الإسلام يجبُّ ما قبْله ـ ألقتْ علىٰ فظائع (الأُمويَّة) ستراً حجَبها، ولاسيّما بعد أنْ عفا عنها رسول الله وتألَّفها، وبعد أنْ قرَّبها الخلفاء منهم، واصطفَوها بالولايات علىٰ المسلمين، وأعطَوها من الصلاحيات ما لم يُعطُوا غيرها من ولاتهم. فسارت في الشام سيرتها عشرين عاماً (لا يتناهَون عن منكرٍ فعلوه) ولا يَنهَون.

وقد كان الخليفة الثاني عظيم المراقبة لعمّاله، دقيق المحاسبة لهم، لا يأخذه في ذلك مانعٌ من الموانع أصلاً: تَعْتع بخالد بن الوليد، عاملِه علىٰ (قِنّسرين) إذ بلغه أنَّه أعطىٰ الأشعث عشرة آلافٍ، فأمَر به فعقله (بلال الحبشيّ) بعمامته، وأوقفَه بين يديه علىٰ رِجلٍ واحدة، مكشوف الرأس، علىٰ رؤوس الأشهاد من رجال الدولة ووجوه الشعب في المسجد الجامع بحِمْص، يسأله عن العشرة آلاف: أهي من ماله أم من مال الأُمَّة؟ فإنْ كانتْ من ماله فهو الإسراف، واللهُ لا يُحِبُّ المسرفين. وإنْ كانتْ من مال الأُمَّة فهي الخيانة، واللهُ لا يُحِبُّ الخائنين، ثمّ عزله فلم يُولِّهِ بعدُ حتَّىٰ مات(١).

ودعا أبا هريرة، فقال له: (علمتَ أنّي استعملتُك علىٰ البحرين، وأنتَ بلا نعلَين! ثمّ بلغني أنَّك ابتعْت أفراساً بألف دينارٍ وستمائة دينار!)، قال: (كانتْ لنا أفراسٌ تناتجتْ، وعطايا تلاحقتْ)، قال: (حسبتُ لك رزقك ومؤونتك، وهذا فضْلٌ فأدِّه)، قال: (ليس لك ذلك)، قال: (بلىٰ وأُوجِعُ ظهرَك)، ثمّ قام إليه بالدِّرةَّ فضربه حتَّىٰ أدماه، ثمّ قال: (ائت بها)، قال: (احتسبْتها عند الله)، قال: (ذلك لو أخذتَها من حلال، وأدَّيتَها طائعاً! أجئتَ من أقصىٰ حجر البحرين يجبي الناسُ لك لا لله ولا للمسلمين؟ ما رجعتْ بك أميمة ـ يعني أُمّه ـ إلَّا لرعيَّة الحمر)(٢).

(١) الغدير/ عبد الحسين الأميني ٦: ٢٧٤.
(٢) الغدير/ عبد الحسين الأميني ٦: ٢٧١.

وفي حديث أبي هريرة: (لـمَّا عزلني عمر عن البحرين، قال لي: يا عدوَّ الله وعدوَّ كتابه، سرقتَ مال الله! فقلتُ: ما أنا عدوّ الله وعدوّ كتابه، ولكنّي عدوّ من عاداك، وما سرقتُ مال الله. قال: فمن أين اجتمعتْ لك عشرة آلاف؟ فقلتُ: خيلٌ تناتجتْ، وعطايا تلاحقتْ، وسهامٌ تتابعتْ. قال: فقبضَها منّي) الحديث[1].

وكم لِعمرَ مع عمّاله من أمثال ما فعله بخالدٍ وأبي هريرة يعرفها المتتبِّعون.

عـزَل كلّاً من أبي موسىٰ الأشْعري، وقُدامة بن مظعون، والحارث بن وهب، أحد بني ليث بن بَكر، بعد أنْ شاطرَهم أموالهم[2].

هذه مراقبة عمر لعمّاله، لا هوادةَ عنده لأحد منهم، لكنَّ معاوية كان أثيره وخلصه، علىٰ ما كان من التناقض في سيرتيهما. ما كفَّ يده عن شيء ولا ناقشه الحساب في شيء، وربَّما قال له: (لا آمرك ولا أنهاك)[3]، يُفوِّض له العمل برأيه.

وهذا ما أطغىٰ معاوية، وأرهف عزمه علىٰ تنفيذ خططه (الأُمويَّة).

(١) الطبقات الكبرىٰ/ ابن سعد ٤: ٣٣٥.

(٢) فيما رواه الزبير بن بَكّار في كتابه - الموفَّقيَّات - ونقله عنه ابن حجر في ترجمة الحارث بن وهب في القسم الأوَّل من إصابته.

(٣) الاستيعاب/ ابن عبد البرّ ٣: ١٤١٧.

وقد وقف الحسن والحسين من دهائه ومكره إزاء خطرٍ فظيع، يُهدِّد الإسلام باسم الإسلام، ويطغىٰ علىٰ نور الحقِّ باسم الحقِّ، فكانا في دفع هذا الخطر، أمام أمرين لا ثالثَ لهما: إمَّا المقاومة، وإمَّا المسالمة.

وقد رأيا أنَّ المقاومة في دور الحسن تؤدّي لا محالة إلىٰ فناء هذا الصفِّ المدافع عن الدين وأهله، والهادي إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، وإلىٰ صراطه المستقيم.

إذ لو غامر الحسن يومئذٍ بنفسه وبالهاشميين وأوليائهم، فواجه بهم القوَّة التي لا قِبَل لهم بها[1] مصمِّماً علىٰ التضحية، تصميم أخيه يوم (الطفّ) لانكشفتِ المعركة عن قتلهم جميعاً، ولانتصرت (الأُمويَّةُ) بذلك نصراً تعجز عنه إمكانياتها، ولا تنحسر عن مثله أحلامها وأمنياتها.

إذ يخلو بعدهم لها الميدان، تُمعن في تِيهها كلّ إمعان، وبهذا يكون الحسنُ _ وحاشاه _ قد وقع فيما فرَّ منه علىٰ أقبح الوجوه، ولا يكون لتضحيته أثرٌ لدىٰ الرأي العامّ إلَّا التنديد والتفنيد[2].

(١) كما أوضحه الشيخ في كتابه هذا.

(٢) لأنَّ معاوية كان يطلب الصلح مُلِحَّاً علىٰ الحسن بذلك، وكان يبذل له من الشروط لله تعالىٰ وللأُمَّة كلَّ ما يشاء، يناشده الله في حقن دماء أُمَّة جدِّه، وقد أعلَن طلبه هذا فعَلِمَه المعسكران، مع أنَّ الغلَبة كانت في جانبه لو استمرَّ القتال، يَعلم ذلك الحسنُ ومعاوية وجنودهما، فلو أصرَّ الحسن - والحال هذه - علىٰ القتال، ثمّ كانت العاقبة عليه لعذله العاذلون، وقالوا فيه ما يشاؤون. ⇦

ومــن هنــا رأىٰ الحســنُ عليه السلام أنْ يــترك معاويــة لطغيانـــه، ويمتحنَه بما يصبو إليـه مـن المُلْك، لكـنْ أَخـذ عليـه في عقـد الصـلح أنْ لا يعــدوَ الكتــاب والسُّــنَّة في شيء مــن ســيرته وســيرة أعوانــه ومقوِّيـة سـلطانه، وأنْ لا يطلـب أحـداً مـن الشـيعة بـذنب أذنبـه مـع الأُمويَّة، وأنْ يكون لهم من الكرامـة وسـائر الحقـوق مـا لغـيرهم مـن المسـلمين، وأنْ، وأنْ، وأنْ. إلىٰ غـير ذلـك مـن الشـروط التـي كـان الحسـنُ عالمـاً بـأنَّ معاويـة لا يفـي لـه بشـيءٍ منهـا وأنَّـه سـيقوم بنقائضها(١).

هــذا مــا أعَــدَّه عليه السلام لرفـع الغطـاء عـن الوجـه (الأُمـويّ) المموَّه، ولصهر الطلاء عن مظـاهر معاويـة الزائفـة، ليـبرزَ حينئـذٍ هـو وسائر أبطـال (الأُمويَّـة) _ كـما هـم _ جـاهليّين، لم تخفـق صـدورُهم بـروح الإسـلام لحظـة، ثـأْريّين لم تُنسِـهم مواهـبُ الإسـلام ومراحمُـه شيئاً من أحقاد بدرٍ وأُحُد والأحزاب.

⇦ ولو اعتذر الحسن يومئـذٍ بـأنَّ معاويـة لا يفـي بشـرط، ولا هـو بمـأمونٍ علىٰ الـدين ولا عـلىٰ الأُمَّـة، لمـا قبـل العامَّـة يومئـذٍ عـذره، إذ كانـت مغـرورة بمعاويـة كـما أوضحناه. ولم تكـن الأُمويَّـة يومئـذٍ سـافرة بعيوبهـا سـفوراً بيِّنـاً بـما يؤيِّـد الحسـنَ أو يخـذلُ معاويـة كـما أسـلفنا بيانـه مـن اغـترار النـاس بمعاويـة وبمكانتـه مـن أُولي الأمـر الأوَّلـين، لكـنِ انكشـف الغطـاء، في دور سـيِّد الشـهداء، فكـان لتضـحيته عليه السلام من نصـرة الحقِّ وأوليائه آثاره الخالدة، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

اقرأْ فصل (سرّ الموقف) من هذا الكتاب.

(١) اقـرأْ مـا يتعلَّـق بنصـوص المعاهـدة وشروطهـا ومـدىٰ وفـاء معاويـة بكـلٍّ منهـا في فصول هذا الكتاب.

وبالجملة فـإنَّ هـذه الخطـة ثـورةٌ عاصـفةٌ في سِـلْم لم يكـن منـه بـدٌّ، أمـلاه ظـرفُ الحسـن، إذ التـبس فيـه الحـقّ بالباطـل، وتسـنّىٰ للطغيان فيه سيطرةٌ مسلَّحةٌ ضاريةٌ.

مـا كـان الحسـنُ ببـادئِ هـذه الخطَّـة ولا بخاتمِهـا، بـل أخـذها فيما أخذه من إرثه، وتركها مع مـا تركـه مـن ميراثـه. فهـو كغـيره مـن أئمَّة هـذا البيـت، يسترشـد الرسـالة في إقدامـه وفي إحجامـه. امتُحِن بهذه الخطَّة فرضَخ لهـا صـابراً محتسـباً، وخـرج منهـا ظـافراً طـاهراً، لم تُنجِّسه الجاهلية بأنجاسها، ولم تُلبسْه من مُدلهِمّات ثيابها.

أخـذ هـذه الخطَّـة مـن صـلح (الحديبيـة) فـيما أُثـر مـن سياسـة جدِّه صلى الله عليه وآله، وله فيـه أُسـوةٌ حسـنةٌ، إذ أنكـر عليـه بعـض الخاصَّـة مـن أصحابه، كما أَنكَـر عـلىٰ الحسـن صـلحَ (سـاباط) بعـضُ الخاصَّـة مـن أوليائه، فلم يهنْ بذلك عزمُه، ولا ضاق به ذَرعُه.

وقد ترك هذه الخطَّـة نموذجـاً صـاغ بـه الأئمَّـة التسـعة _ بعـد سيِّدَيْ شباب أهـل الجنَّـة _ سياسـتَهم الحكيمـة، في توجيههـا الهـادئ الرصـين، كلَّـما اعصَوصـب الشـرّ. فهـي إذن جـزءٌ مـن سياسـتهم الهاشـمية الـدائرة أبـداً عـلىٰ نصـرة الحـقِّ، لا عـلىٰ الانتصـار للـذات فيما تأخذ أو تدعْ.

تهيَّـأ للحسـن بهـذا الصـلح أنْ يغـرس في طريـق معاويـة كمينـاً من نفسـه يثـور عليـه مـن حيـث لا يشـعر فيُرديـه، وتسـنّىٰ لـه بـه أنْ يُلغِّم نصـر الأُمويَّة ببـارود الأُمويَّـة نفسـها. فيجعـل نصـرها جفـاءً، وريحاً هباءً.

لم يطـلِ الوقـتُ حتَّـىٰ انفجـرت أُولىٰ القنابـل المغروسـة في شروط الصلح، انفجـرت مـن معاويـةَ نفسِـه يـوم نشـوته بنصـره؛ إذ انضمَّ جـيش العـراق إلىٰ لوائـه في النخيلـة. فقـال _ وقـد قـام خطيبـاً فـيهم _: (يـا أهـل العـراق، إنّي والله لم أُقـاتلْكم لتُصـلّوا ولا لتصـوموا، ولا لتزكّـوا، ولا لتحِجّـوا، وإنّـما قـاتلتكم لأتـأمَّر علـيكم، وقـد أعطـاني الله ذلـك، وأنـتم كـارهون! ألَا وإنَّ كـلَّ شيءٍ أعطيتـه للحسن بن علي جعلتُه تحت قدميَّ هاتين!)[١].

فلـمَّا تمَّـت لـه البيعـةُ خطَـب فـذكر عليَّـاً فنـال منـه، ونـال مـن الحسن، فقام الحسين لـيردَّ عليـه، فقـال لـه الحسـنُ: «علىٰ رسـلك يـا أخي»، ثمّ قام عليه السلام فقـال: «أيّهـا الـذاكرُ عليَّـاً! أنـا الحسـنُ وأبي علـيٌّ، وأنـت معاويـة وأبـوك صـخرٌ، وأُمّـي فاطمـة وأُمّـك هنـدٌ، وجـدّي رسـول الله وجـدّك عتبـة، وجـدَّتي خديجـة وجـدَّتك فتيلـة، فلعـن الله أخملنا ذكـراً، وألأمَنـا حسَـباً، وشرّنـا قـديماً، وأقـدمَنا كفـراً ونفاقـاً!»، فقالت طوائف من أهل المسجد: (آمين)[٢].

ثمّ تتابعت سياسةُ معاوية، تتفجَّر بكلِّ ما يخالف الكتاب والسُّـنَّة من كلِّ منكـر في الإسـلام، قـتلاً للأبـرار، وهتكـاً للأعـراض، وسـلباً للأموال، وسَجناً للأحرار، وتشـريداً للمصلحين، وتأييـداً للمفسـدين الذين جعلهم وزراء دولته، كابن العاص، وابن شعبة، وابن سعيد، وابن

(١) الإرشاد/ المفيد ٢: ١٥.
(٢) المصدر نفسه.

أرطاة، وابن جندب، وابن السمط، وابن الحكم، وابـن مرجانـة، وابـن عُقبة، وابن سُميَّة الذي نفاه عن أبيه الشـرعي عبيد، وألحقه بالمسافح أبيه أبي سفيان ليجعله بذلك أخاه، يُسلِّطه علىٰ الشيعة في العـراق، يسـومهم سوءَ العذاب، يُذبِّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويُفرِّقهم عَباديد، تحت كلّ كوكب، ويُحرِّق بيوتهم، ويصطفي أموالهم، لا يألو جهداً في ظلمهـم بكلِّ طريق.

ختم معاوية منكراتـه هـذه بحمـل خليعِـه المهتـوك عـلىٰ رقـاب المسلمين، يَعيث في دينهم ودنياهم، فكان من خليعه ما كان يوم الطفّ، ويوم الحَرَّة، ويوم مكّة إذ نصب عليها العرادات والمجانيق!

هـذه خاتمـة أعـمال معاويـة، وإنّهـا لـتلائم كـلَّ الملاءمـة فاتحـة أعماله القاتمة.

وبـين الفاتحـة والخاتمـة تتضـاغط شـدائد، وتـدور خطـوب، وتـزدحم محَـن، مـا أدري كيـف اتَّسـعت لهـا مسـافة ذلـك الـزمن؟ وكيـف اتَّسـع لهـا صـدر ذلـك المجتمـع؟ وهـي _ في الحـقِّ _ لـو وُزِّعَتْ علىٰ دهـرٍ لضـاق بهـا، ونـاء بحملهـا، ولـو وُزِّعَـتْ عـلىٰ عـالَمٍ لكان جديراً أنْ يحول جحيماً لا يطاق.

ومهما يكن من أمـرٍ، فـالمهمّ أنَّ الحـوادث جـاءت تُفسِّـر خطَّـة الحسن وتجلوها. وكان أهـمّ مـا يرمـي إليـه سـلام الله عليـه، أنْ يرفـع اللثـام عـن هـؤلاء الطغـاة، ليحـول بيـنهم وبـين مـا يُبيِّتـون لرسـالة جدِّه من الكيد.

وقد تمَّ له كلُّ ما أراد، حتَّىٰ برح الخفاء، وآذن أمر الأُمويَّة بالجلاء، والحمد لله ربِّ العالمين.

وبهذا استتبَّ لصِنْوه سيِّد الشهداء أنْ يثور ثورته التي أوضح الله بها الكتاب، وجعله فيها عِبرةً لأُولي الألباب.

وقد كانا عليهما السلام وجهَين لرسالةٍ واحدةٍ، كلُّ وجه منهما في موضعه منها، وفي زمانه من مراحلها، يكافئ الآخر في النهوض بأعبائها ويوازنه بالتضحية في سبيلها.

فالحسن لم يبخلْ بنفسه، ولم يكنِ الحسينُ أسخىٰ منه بها في سبيل الله، وإنَّما صان نفسَه يُجنِّدها في جهادٍ صامت، فلمَّا حان الوقت كانت شهادة كربلاء شهادةً حسَنيةً، قبل أنْ تكون حُسينيةً.

وكان يوم ساباط أعرق بمعاني التضحية من يوم الطفّ لدىٰ أُولي الألباب ممَّن تعمَّق؛ لأنَّ الحسن عليه السلام أُعطي من البطولة دور الصابر علىٰ احتمال المكاره في صورة مستكينٍ قاعدٍ.

وكانت شهادة (الطفّ) حسنيَّة أوَّلاً، وحُسينيَّة ثانياً؛ لأنَّ الحسن أنضج نتائجها، ومهَّد أسبابها.

كان نصرُ الحسن الدامي موقوفاً علىٰ جلو الحقيقة التي جلاها _ لأخيه الحسين _ بصبره وحكمته، وبجلوها انتصر الحسين نصرَه العزيز، وفتح اللهُ له فتْحَه المبين.

وكانا عليهما السلام كأنَّهما متَّفقان علىٰ تصميم الخطَّة: أنْ يكون للحسن منها دورُ الصابر الحكيم، وللحسين دور الثائر الكريم، لتتألَّف من الدورين خطَّةٌ كاملة ذات غرض واحد.

وقد وقف الناس _ بعد حادثتي ساباط والطفّ _ يُمعنون في الأحداث فيرَون في هؤلاء الأُمويين عصبةً جاهليةً منكرةً، بحيث لو مُثِّلت العصبيات الجِلفة النذلة الظلوم لم تكن غيرهم، بل تكون دونهم في الخطر علىٰ الإسلام وأهله.

رأىٰ الناس من هؤلاء الأُمويين قردةً تنزو علىٰ منبر رسول الله، تُكشِّر للأُمَّة عن أنياب غول، وتصافحها بأيدٍ تمتدُّ بمخالب ذئب، في نفوسٍ تدبُّ بروح عقرب.

رأوا فيهم هذه الصورة منسجمةً شائعةً متوارثةً، لم تُخفِّف من شرِّها التربيةُ الإسلاميَّة، ولم تُطامِن من لؤمها المكارمُ المحمّدية. فمضْغُ الأكباد يوم هندٍ وحمزة، يرتقي به الحقد الأُمويّ الأثيم، حتَّىٰ يكون تنكيلاً بربرياً يوم الطفّ، لا يكتفي بقتل الحسين، حتَّىٰ يوطِئَ الخيلُ صدرَه وظهره. ثمّ لا يكتفي بذلك، حتَّىٰ يُترَكَ عارياً بالعراء، لوحوش الأرض وطير السماء، ويُحمَل رأسه ورؤوس الشهداء من آله وصحبه علىٰ أطراف الأسنَّة إلىٰ الشام. ثمّ لا يكتفي بهذا كلّه، حتَّىٰ يُوقَف حرائر الوحي من بنات رسول الله علىٰ درج السبْي!!

رأىٰ الناسُ الحسن يسالمُ، فلا تُنجيهِ المسالمةُ من خطر هذه الوحشية اللئيمة، حتَّىٰ دسَّ معاوية إليه السُّمَّ فقتله بغياً وعدواناً. ورأوا الحسينَ يثور في حين أُتيح للثورة الطريق إلىٰ أفهامهم تتفجَّر فيها باليقظة والحرّية، فلا تقف الوحشيةُ الأُمويَّةُ بشيءٍ عن المظالم، بل تبلغ في وحشيتها أبعد المدىٰ.

وكـان مـن الطبيعـيّ أنْ يتحـرَّر الـرأي العـامّ عـلىٰ وهـج هـذه النـار المحرقـة منطلقـاً إلىٰ زوايـا التـاريخ وأسراره، يسـتنزل الأسـباب مـن هنـا وهنـاك بلمعـانٍ ويقظـةٍ، وسـيْرٍ دائـب يُدنيـه إلىٰ الحقيقـةِ، حقيقةِ الانحـراف عـن آل محمّـد، حتَّـىٰ يكـون أمامهـا وجهـاً لوجـه، يَسـمع همسـها هنـاك في الصـدر الأوَّل، وهـي تتسـارُّ وراء الحُجُـب والأستار، وتُـدبِّر الأمـر في اصـطناع هـذا (الداهيـة الظلـوم الأُمـويّ) اصطناعاً يطفئ نور آل محمّد، أو يحول بينه وبين الأُمَّة.

نعـم، أدرك الـرأيُ العـامّ _ بفضـل الحسـن والحسـين وحكمـة تـدبيرهما _ كـلَّ خافيـةٍ مـن أمْـر (الأُمويَّـة) وأُمـور مسـدِّدي سـهمها عـلىٰ نحـوٍ واضـح. أدرك _ فـيما يتَّصـل بـالأُمويين _ أنَّ العلاقـة بينهم وبين الإسلام إنَّـما هـي علاقـة عـداء مسـتحكم؛ ضرورةَ أنَّـه إذا كان المُلْك هو مـا تهـدف إليـه الأُمويَّـة، فقـد بلغـه معاويـة، وأتـاح لـه الحسن، فـما بالهـا تلاحقـه بالسُّـمِّ وأنـواع الظلـم والهضـم، وتتقصّـىٰ الأحرار الأبرار من أوليائه لتستأصل شأفتهم وتقتلع بذرتهم؟!

وإذا كان المُلْك وحده هو ما تهدف إليه الأُمويَّة، فقد أُزيح الحسين من الطريق، وتمَّ ليزيدَ ما يريد، فـما بالهـا لا تكـفُّ ولا ترعـوي؟ وإنَّـما تسـرف أقسىٰ ما يكون الإسراف والإجحـاف في حركـةٍ مـن حركـات الإفناء علىٰ نمط من الاستهتار، لا يُعهَد في تاريخ الجزّارين والبرابرة؟؟

أمَّا ما انتجتْه هذه المحاكمة لأُولي الألباب، فذلك ما نترك تقديره وبيانه للعارفين بمنابع الخير، ومطالع النور في التاريخ الإسلامي، علىٰ أنّا فصَّـلناه بآياتـه وبيِّناتـه في مقدّمـة (المجـالس الفـاخرة في مـآتم العـترة

الطاهرة) فليُراجَع، ولنكتفِ الآن بالإشارة إلىٰ ما قلناه في التوحيـد بـين صلح الحسن وثورة الحسين، والتعاون بين هذين المظهرين، علىٰ كشـف القناع عن الوجه الأُمويّ المظلم، والإعلان عن الحقيقة الأُمويَّة، فـأقول عَوْداً علىٰ بدْءٍ: كانت شهادة الطفّ حسنيةً أوَّلاً، وحسينيةً ثانيـاً. وكـان يوم ساباط، أعرق بمعاني الشهادة والتضحية من يوم الطـفّ عنـد مـن تعمَّق واعتدل وأنصف.

الفضل في كشف هـذه الحقيقـة إنَّـما هـو لمولانـا ومقتـدانا علَـم الأُمَّـة، والخبـير بـأسرار الأئمَّـة، حجَّـة الإسـلام والمسـلمين، شـيخنا المقدَّس الشيخ راضي آل ياسين أعلىٰ الله مقامه.

ذلك لأنَّ أحداً من الأعـلام لم يتفـرَّغْ لهـذه المهمَّـة تفرُّغـه لهـا في هذا الكتاب الفـذّ الـذي لا ثـاني لـه، وهـا هـو ذا مشـرفٌ مـن القمَّـة علىٰ الأُمَّـة، ليسـدَّ في مكتبتهـا فراغـاً كانـت في فاقـةٍ إلىٰ سـدِّه، فجـزاه الله عن الأُمَّة وعـن الأئمَّـة، وعـن غـوامض العلـم التـي اسـتجلاها، ومخبّآتـه التـي اسـتخرجها، ومحَّـص حقائقهـا، خـير جـزاء المحسـنين، وحشـره في أعلىٰ علّيّـين ﴿مَـعَ الَّذِيـنَ أَنْعَـمَ اللهُ عَلَـيْهِمْ مِـنَ النَّبِيِّـينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾.

حُرِّر في صور (جبل عامل) في الخامس عشـر من رجبٍ
سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة وألفٍ من الهجرة
عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي

* * *

الفهرست

* * *